Aljawari manifestations in Andalusian poetry between influence and impact.

Dr. Slman Hattab[*]
Dr. Nabil Sliman[**]
Yaser Ahmad Syrafe[***]

(Received 30 / 7 / 2019. Accepted 15 / 9 / 2019)

□ ABSTRACT □

The research represents a vivid image of my neighbors and their manifestations in Andalusian poetry. Juwari was often an inspiration to poets. And they were able to possess the qualities that stirred poets poets poetry. They produced notices for various purposes. The most important of these were nostalgia, complaining, reproach, singing, description, spelling, and heresy: Jawari was not merely an influence in the poetic movement, but influenced the open Andalusian life by expressing their feelings in the form of excerpts required by the place they appeared in.

Key words: Manifestations . aljawari . boetry . andalusian . fluence . impact

[*] **Professor, Department of Arabic Language, Faculty of Arts, Tishreen University, Lattakia**
[**] **Assistant Professor, Department of Arabic Language, Faculty of Arts, Tishreen University, Lattakia.**
[***] **Postgraduate Student, master student Department of Arabic Language, Faculty of Arts, Tishreen University, Lattakia**

/ تجلّياتُ الجواري في الشِّعرِ الأندلسيِّ بينَ التَّأثيرِ والتَّأثُّر /

الدكتور سلمان حطّاب*
الدكتور نبيل سليمان**
ياسر أحمد صيرفي***

(تاريخ الإيداع 30 / 7 / 2019. قبل للنشر في 15 / 9 / 2019)

□ ملخّص □

يمثلُ البحثُ صورةً حيّةً للجواري وتجلّياتِهنَّ في الشعر الأندلسيّ، فقد كانت الجواري في كثيرٍ من الأحيان مُلهِماً للشعراء، وقد استطعن بما يمتلكنه من صفاتٍ أن يحرّكنَ في الشعراء قريحتهم الشعرية، فأنتجوا أشعاراً بأغراضٍ متنوّعةٍ كان أهمها: (الحنين، والشكوى، والعتاب، والغزل، والوصف، والهجاء، والرثاء)، ولم تكن الجواري مجرّد مؤثِّرٍ في الحركة الشعريّة، بل إنّهن تأثّرن بالحياة الأندلسيّة المُنفتِحة، فعبَّرن عمّا يجول بأنفسهنَّ من مشاعر على شكل مُقتطَفاتٍ اقتضاها المقام الذي ظهرن فيه.

الكلمات المفتاحيّة: تجلّيات، الجواري، الشعر، الأندلسي، التأثير، التأثّر.

* أستاذ – قسم اللغة العربية– كلية الآداب والعلوم الإنسانية– جامعة تشرين، اللاذقيَّة.
** مدرّس – قسم اللغة العربية– كلية الآداب والعلوم الإنسانية– جامعة تشرين، اللاذقيَّة.
*** طالب دكتوراه– قسم اللغة العربية– كلية الآداب والعلوم الإنسانية– جامعة تشرين، اللاذقيَّة.

مقدّمة:

كان للمرأة الأندلسيّة دورٌ كبيرٌ في الحياة الأندلسيّة في نواحيها كافّةً، ولعلّ الدور الأكبر في تلك المرحلة كان للجواري، وقد سُمّيت الجواري بمُسمّياتٍ كثيرةٍ، فكانت القيّنة والسُريّة والأَمة والرقيق والجارية، والجارية هي ((الفتيّة من النساء بيِّنةَ الجراية))[1].

ومنهم مَن أشار إلى أنَّ الجارية هي السفينة، وقد سُمّيت الجارية بهذا الاسم؛ لأنّها تجري مُستسخرَةً وراء عمل مواليها، ثمّ اتسع المفهوم إلى أنْ سُمّيت كلّ أمةٍ جاريةً وإنْ كانت عجوزاً([2]).

وقد اتصفت معظم الجواري فضلاً عن جمالهنَّ بالتأدّب، فقد وُصفنَ بأنّهنَّ شاعراتٌ وأديباتٌ أو عالمات، ولعلّ الاهتمام بالجواري المثقّفات دفع تجّار الرقيق لتعليمهنَّ أكثر فأكثر ليزداد سعرهنَّ، فعُدَّ تعليم الجواري والعناية بهنَّ من أبواب الكسب الواسعة[3].

وكان لابدّ في هذا البحث من الوقوف عند الجواري سواء كُنَّ مؤثراتٍ أم متأثراتٍ منتجاتٍ للشعر، لطالما أنهنّ لم يكنّ مجرّد أداة حرّكت المشاعر والقرائح عند الشعراء فأحاطوهنّ بشعرهم، بل كانت تلك الجواري متأثراتٍ بالحياة الأندلسية المنفتحة التي أباحت لهنّ التعبير عمّا يجول في مكنوناتهنّ.

أهميّة البحث وأهدافه:

– الوقوف عند أهمّ الأغراض الشعرية التي قصدها الشعراء في حديثهم عن الجواري ولعلّ أهمّها:/الحنين والشكوى والعتاب والغزل والوصف والهجاء والرثاء/.

– بيان الأغراض الشعرية التي قصدتها الجواري بعد أن انفتحن على الحياة ودخلنَ مجال الرجال في الأسواق والمجالس وغيرها من الأماكن التي كانت سبباً في تحريك القرائح لديهنّ.

– التأكيد على مدى اهتمام الأندلسيين بالجواري، ولاسيّما في مجال التعليم والزينة؛ لأنّ الجارية كانت انعكاساً لحال سيّدها.

منهجيّة البحث:

وقد اعتمد البحث على المنهج الوصفي الذي سيساعد في الوقوف عند أشهر الأغراض الشعرية التي تدور في فُلك الجواري تأثيراً وتأثّراً، وتحليلها وبيان ما تحمله من معانٍ.

أولاً) الجواري في الأغراض الشعرية:

كان لجمال الجواري وعلمهنَّ وأدبهنَّ وسهولة الاختلاط بهنَّ أثرٌ في تحفيز قريحة شعراء الأندلس، فكنَّ نبعاً لإلهام الشعراء ودافعاً للتنافس بينهم، وقد نظم شعراء الأندلس فيهنَّ أشعاراً في مختلف الأغراض الشعرية أهمّها:

1– الحنين:

على الرغم من أنّ الجواري كنَّ مجرّد أداة متعةٍ في الأندلس إلّا أنّهنَّ لجمالهنّ وذكائهنَّ استطعن أن يوقعن الرجال في حبّهنَّ، فحملنَ إلى جانب صفة التسلية معنى اللذة الروحيّة، فَنَعِمَ الرجل بجمالهنّ وذكائهنّ وظُرفهنَّ فصعُب عليهم فراقهنَّ، ولعلّ الحنين من أسمى العواطف التي تعرّض لها الرجال عند فراق الجواري بسبب العجز عن رؤيتهنّ بسبب

[1] - لسان العرب، ابن منظور، مادة: (جرى)، 14، ص144.
[2] - يُنظر: المصباح المنير، 1، ص134.
[3] - يُنظر: تاريخ العراق، الخربوطلي، ص282.

أعين الرقباء، وقد عبّر الشعراء بشعرهم عن مدى حبّهم للجواري وتعلّقهم بهنّ عند الفراق بعيداً عن كلّ ما هو مادّيٍ شهوانيّ[1].

وها هو الأمير عبد الرحمن بن الحكم يعبّر عن حنينه وشوقه لمحبوبته طَروب وهو في إحدى غزواته دون رادعٍ يردعه عن البوح بشوقه لها ولا سيّما في عتمة الليل عندما تزداد وحدته ويستيقظ شوقه فقال[2]:/المتقارب/

فقدتُ الهوى مُذْ فقدتُ الحبيبَا ... فما أقطعُ الليلَ إلّا نحيبا
وإمّا بدتْ ليَ شمسُ النها ... رِ طالعةً ذكّرتْني طَروبا
أُلاقي بوجهي سُمومَ الهجيرِ ... إذا كادَ منهُ الحصى أن يذوبا

ولعلّ هذه الابيات تعبيرٌ صريحٌ على أنَّ المجتمع الأندلسيّ لم يكن يستنكر حنين الرجال للجواري بل تقبّله كعلاقة عاطفيّة بين عاشقَين.

ومن صور الحنين إلى الجواري ما نظمه سعيد بن جودي في جارية الأمير عبد الله بن محمد المُسمّاة جيحان، فقد وقع في حبّها رغم أنّه لم يرَها ولمجرّد أنّه سمع صوتها، لكنّه عندما شعر أنّ الوصول إليها محالٌ قرّر ألّا يحيا سمعه دونها وحرّم روحه على نفسه ، لكنّ قراره كان صعباً، فاقتنع بلوعة الحزن وبكى شوقاً وحنيناً إليها على أمل اللقاء بها فقال[3] /البسيط/

سمعي أبى أن يكونَ الروحُ في بدني ... فاعتاضَ قلبي منهُ لوعةَ الحَزَنِ
أعطيتُ جيحانَ روحي عن تذكّرها ... هذا ولم أرَها يوماً ولم ترَني
كأنني واسْمُها والدمعُ مُنسكِبٌ ... من مقلتَي راهبٌ صلّى إلى وَثَنِ

ولعلّ سبب عدم وصول سعيدٍ إلى رؤية الجارية يعود إلى غيرة الأمير على جاريته أو لرغبته بالتفرّد في تملُّك ما هو جميل.

ومن أرقّ صور الحنين إلى الجواري ما حدث مع المعتمد بن عباد في حنينه لاعتماد الرميكيّة، فقد كان في نزهةٍ مع ابن عمّار فتحرّك الحنين إليها فلم يصبر على بعدها في نزهته العابرة، فأرسل إليها مقطوعة شعرية ضمّن أوائل أبياتها أحرف اسم اعتماد، وكان ذلك على الرغم من أنّ النزهة لم تكن طويلة فقال:[4] /المتقارب/

أغائبةَ الشخصِ عن ناظري ... وحاضرةً في صميمِ الفؤادِ
عليكِ سلامٌ بقدرِ الشجونِ ... ودمعُ الشؤونِ وقدْرِ السُّهادِ
تمَلَّكتِ منّي صَعْبَ المَرامِ ... وصادفتِ وُدّي سَهْلَ القيادِ
مُرادي لُقياكِ في كلِّ حينٍ ... فيا ليتَ أنّي أُعطَ مُرادي
أقيمي عليّ العهدَ ما بينَنَا ... ولا تستحيلي لطولِ البِعادِ
دسَسْتُ اسمَكِ الحُلوَ في طيِّهِ ... وألّفْتُ فيهِ حروفَ اعتمادِ

[1] - يُنظر: الجواري في الأندلس، وائل أبو صالح ، ص117.
[2] - الحلّة السيراء، ابن الأبار، 1، ص114- 115.
[3] - السابق نفسه، 1، ص157- 158.
[4] - ديوان المعتمد، ص8.

ولعل هذه الأبيات تبرز مدى حنين المعتمد إلى اعتماد الرميكية، وقد بدا ذلك من خلال الابتكار في صياغة الشعر الذي ضمّن فيه أحرف اسمها.

وقد حمل الحنين في بعض الأحيان سمة الاشتياق للمحاسن الجسديّة، وكان ذلك الشعر في كثيرٍ من الأحيان مصاحباً لمجلس الخمر وتأثيره بالعقول، وهذا ما ظهر في شعر ابن السرّاج الذي كان يجلس في حديقة غنّاء، فرأى الورد المُعلّق في الأغصان، فتذكّر الجارية حسن الورد التي كانت هيفاء بهيّةً فقال:[1] /البسيط/

ذكرْتُ بالوردِ حُسْنَ الوردِ شِقَّتَهُ حُسناً وطيباً وعهداً غيرَ مضمونِ
هيفاءُ لو بعثتُ أيّامي لرؤيتِها بساعةٍ لم أكن فيها بمغبونِ
كالبدرِ ركّبَهُ في الغصنِ خالقُهُ فما ترى حينَ تبدو غيرَ مفتونِ
فاشربِ على ذكرِها خمراً كريقتِها وخُصَّنِي بهواها حينَ تسقيني

يظهر ابن السرّاج من خلال هذه الأبيات وهو في مجلس لهوٍ وخمرٍ يتعذّب من عشقه لحسنِ الورد وحنينه لها على الرغم من أن مظاهر الأبيات فيه ذِكرٌ لمحاسن الجسد.

ومهما كان شكل الحنين سواءٌ كان روحيّاً أم جسديّاً إلا انّه يبقى حنيناً لجاريةٍ، لذا فالبعد الجسدي على ما يبدو هو الغالب وإن سعى الشعراء في كثيرٍ من الأحيان إلى تغليفه بصبغة الحب والشوق للمحبوبة.

2- الشكوى:

لعلّ نسبة الشكوى إلى السيّد أمام مملوكه شيءٌ فيه العجب ولا سيّما عندما يكون العبد مُلكَ اليمين وسهل المَنال، وربّما سبب الشكوى يعود لوقوع الأسياد عبيداً بحكم الحبّ، فاشتركوا عندها بسمة العبوديّة مع اختلاف السيّد، فالسيّد عبدٌ لحبّ الجارية، والجارية عبدةٌ لسيّدها محكومةٌ بعقد بيعٍ وشراء، وقد اتُّخِذَتْ شكوى الشعراء في الأندلس من تمنّع الجواري أو غضبهنّ، وهذا ما تبدّى في شكوى المعتمد من تمادي جاريته جوهرة في الغضب، فقد غلبته الدموع والهموم فقال:[2] /مجزوء الرجز/

جوهرُ قد عذَّبَني منْكِ تمادي الغضَبِ
فَزِفْرتي في صَعَدِ وعَبرتي في صَبَبِ
يا كوكبَ الحسُنِ الذي أزرى بِزُهَرِ السُّهَبِ
مَسْكنُكِ القلبُ فلا تَرضي لهُ بالوَصَبِ

ولعلّ المثير للدهشة أنّ المعتمد الملك يعجز أمام غضب جاريته بعيداً عن فَرضِ سلطته وسيادته كحاكمٍ من جهةٍ ومالكٍ لجاريةٍ من جهةٍ أخرى، بل سعى لسياسة المُداراة التي تبدّت بتصغير اسمها /جوهرُ/ من باب التحبّب، وتظهر في هذه الأبيات سمة الاستقلاليّة في الرأي في ظلّ العبوديّة في المصير.

ومن الشعراء الذين شُغفوا بحب الجواري واشتكوا من دلالهنَّ الشاعر التطيلي، فقد شُغف بالقينة لذيذة التي كنّاها أمّ الوفاء، وشكا صدّها وهجرانها رغم حبّه لها فقال:[3] /الكامل/

يا حبّذا أمُّ الوفاءِ وإنْ جفتْ وتغيّرتْ فيها التي لا تسأمُ
وهي التي انفردتْ بودّي كلِّهِ ولطالما قد كان وهو مُقسَّمُ

[1] - الذخيرة، ابن بسام، ق1، م1، ص872- 873.
[2] - ديوان المعتمد، ص3.
[3] - الذخيرة، ابن بسام، ق2، م2، ص736.

وتبدو الشكوى عند التطيلي من خلال خوفه من أن تسمع أمّ الوفاء شكوته فتعاتبه فقال:[1] /البسيط/

يا ربُّ قد سفكتْ أمّ الوفاءِ دمي ... وقد تخوّفْتُ يوماً أنْ تُؤاخَذَ بِي
وقد وهبتُ لها قلبي وما خَطَري ... حتّى يُعاقَبَ ذاكَ الحُسنُ مِن سَبْيِي
سبتْ فؤادي ذاتُ الخالِ قادرةً ... ولا نصيبَ له منها سوى النَّصَبِ

وقد ظهرت الشكوى أيضاً في شعر المعتمد الذي اشتكى من قرار جاريته مفارقتَه، فقد أتبع الشكوى بالصلح والمودّة فقال:[2] /الطويل/

عفا اللهُ عن سِحْر على كلَّ حالةٍ ... ولا حُسِبَتْ عمّا بها أنا واجِدُ
أسِحْرٌ ظلمتي النفسَ واخترتِ فُرقتي ... فجمّعتِ أحزاني وهُنَّ شوَارِدُ
وكانتْ شُجوني باقترابكِ نُزَّحا ... فها هنَّ لمّا أنْ نأيَتُ شواهدُ
فإنْ تستلذّي بَردَ مائِكِ بعدَنا ... فبعدَكِ ما ندري متى الماءُ باردُ

لقد أظهرت الجواري من خلال هذه الأبيات مستوًى متقدّمًا من الاستقلاليّة وصلت إليه الجواري في الأندلس، وقد تبدّى ذلك من خلال اتخاذها قراراً بمقاومة سيّدها، وهذا قرارٌ لا تجرؤ عليه إلا السيدات الأحرار.

يتبدّى من خلال غرض الشكوى السابق ذلك المستوى الذي وصل إليه الملوك والشعراء في العصر الأندلسي من خضوعٍ أمام الجواري اللواتي أتينَ عبيداتٍ وأصبحنَ ذواتِ قرارٍ وموقفٍ جعل السيد يخضع أمام ما تمتّعنَ به من جمالٍ وحِنكةٍ ما دفعه لطرق باب الشكوى.

3- العتاب:

على الرغم من لجوء بعض الشعراء إلى الشكوى من الجواري وبُعدِهنَّ إلا أنّ بعض الشعراء لجأ إلى العتاب المباشر ليُظهر من خلاله الودَّ للجارية، ومن ذلك شعر المعتمد الذي أرسله لجاريته جوهَرة وقد ضمّنَه استرضاءَها، لكنّها على ما يبدو لم ترضَ فعادَ وراسلَها من جديد فقال:[3] /السريع/

لم تصفُ لي بعدُ وإلا فلِمْ ... لَم أرَ عُنوانَها جوهرهْ
درتْ بأنّي عاشقٌ لاسْمِها ... فلمْ تُرِدْ للغيظِ أنْ تذكُرَهْ
قالتْ إذا أبصرَهُ ثانياً ... قبَّلهُ واللهِ لا أُبْصَرَهْ

يبدو من خلال الأبيات أنّه راسلها فردت برسالة لم تذكر فيها اسمها وعبّرت عن عدم رِضاها بعدُ، وهي لم تذكر اسمها من باب إغاظته، ولعلّ اللجوء إلى الرسائل ينمّ عن شخصيّة إنسانية تحملها الجارية، وهذا ما جعل المعتمد يراسلها فعلاً.

ومن الشعراء الذين لجؤوا إلى العتاب الشاعر سعيد بن جودي الذي عاتب جاريته على حركةٍ خجولةٍ قامت بها، فبعد أن أُرسلت تلك الجارية إليه من قرطبة وخلا بها أعرضت عنه ونظرت إلى الأرض فعاتبها بقوله:[4] /الطويل/

أمائلةَ الألحاظِ عنّي إلى الأرضِ ... أهذا الذي تُبدينَ ويحكِ من بُغضي
فإنْ كانَ بُغضاً لستُ واللهِ أهلاً لهُ ... ووجهي بذاك اللحظِ أولى من الأرضِ

[1] - السابق نفسه، م2، ص736.
[2] - ديوان المعتمد، ص8.
[3] - ديوان المعتمد، ص14.
[4] - الحلة السيراء، ابن الأبار، 1، ص158.

نلحظ من خلال غرض العتاب أنّه كان تعبيراً عن مدى مكانة الجواري عند الأسياد وهذا ما دفعهم لمعاتبتها ووضعها موضع السيدة الحرة التي تُعاتب.

4- الغزل:

لعلّ الطبيعة الأندلسية بما تحمله من جمالٍ حرّكتْ في قلب الشعراء حبَّ كلّ ما هو جميل، وعندما نزل الشعراء إلى الأسواق واختلطوا بالجواري افتُتِنوا بجمالهنّ، فنظموا أشعاراً تتغزّل بهنّ، وإن كان الرابط في كثيرٍ من الأحيان بين الشاعر والجارية يحمل الصبغة الماديّة إلا أنّ الشعراء ظهروا من خلال شعر الغزل وكأنّهم عاشوا أجمل قصص الحب، فظهر السيّد عبداً أمام جمال جاريته، وها هو الشاعر ابن حمديس يتغزّل بجاريته التي وقع في أسرها مصوراً حالة الأنس التي قضاها معها إلى أن بزغ الفجر فنزعها عن صدره من بين ساعدَيه، فكان نَزعها كنزع الروح من الجسد، فبكى على فراقها قائلاً:[1] /الكامل/

وَيْلي على مملوكةٍ ملكَتْ رِقِّي بحُسنِ مقالِها وَيْلي
غَيداءُ تحسبُ كلما انعطفتْ من فَرعِها ذيلاً على ذيلِ
وكأنّها شمسٌ على غصنٍ مُترنّحِ التقويمِ والمَيْلِ
قالتْ وقد عانقتُها سَحَراً لِمَ زُرتَنا في آخرِ الليلِ
ناجيْتُها وغمزْتُها قُبَلاً هذا أوانُ غارةِ الخَيْلِ
حتى إذا بزَغَتْ شبيهتُها كالتاجِ فوقَ مفارقِ القَيْلِ[2]
نُزِعَتْ كَنَزْعِ الروحِ من جسدي عنّي قلادةَ ساعدٍ غَيْلِ
فنهضتُ أشرَقُ بالدموعِ كما شرِقَ الفضاءُ بكَثرةِ السَّيْلِ

ويبدو الغزل بصفته العذرية في شعر ابن عمار، فقد نظم غزلاً بالجارية نُعمى مُبيّناً فيه عذابه من حبّها مُتمنيّاً لقاءها، وقد ضمّن أحرف اسمها أوائل أبياته فقال:[3] /الكامل/

نفسي وإن عذّبتِها تهواكِ ويهزّها طربٌ إلى لُقياكِ
عجباً لهذا الوصلِ أصبح بيننا مُتعذّراً ومُنايَ فيه مُناكِ
ما بالُ قلبي حينَ رامَكِ لم يزلْ ولقد ترومُكِ مُقلتي فتراكِ
اللهُ أعلمَ ما أزورُ لِحاجةٍ ذاكَ المحلُ لغيرِ أنْ ألقاكِ

فالشاعر يبين أنّه في سعيٍ دائمٍ للوصول إليها، فهو يزور كلّ مكانٍ كانت تقصده علّه يراها فيه.

لكن على الرغم من هذه الصبغة العذرية المتبدّية في الأبيات السابقة إلا أنه يظهر البعد المادّي في موضع غزلٍ آخر، فقد تمنّى ابن عمّار أن يلتقي الجارية دون رقيب كي يتجوّل في مفاتن جسدها كاملةً فقال:[4]/الكامل/

ليت الرقيبَ إذا التقينا لم يكنْ فأنالُ ريّاً من لذيذِ لَماكِ
مُتنزّهاً في رَوضِ خدّكِ شارباً كأسَ الفتورِ تديرُها عيناكِ

[1] - ديوان ابن حمديس، ص363.
[2] - القيل: مَن يشبه مَن قبله من الملوك، لسان العرب، مادة: /قَيل/: 11، ص580.
[3] - الحلة السيراء، ابن الابار، 2، ص164.
[4] - السابق نفسه، 2، ص164.

حكتِ الغصونُ جمالَ قدّكِ فانثنَتْ والفضلُ للمحكيِّ لا الحاكي
لا تعذُبي يا روضةً ممطورةً حتى أمدّ يديَّ إلى مَجْناكِ

نلحظ من خلال هذه الأبيات أنّ الشعراء وإن تكلّفوا البعد الروحي في بعض أشعارهم في ذكر الجواري إلا أنّ البعد المادّي كان طاغياً، فلم يستطيعوا أن يخفوا في أشعارهم ميلهم القوي لمداعبة الجواري والاختلاء بجمالهنّ كي يقطفوه، وهذا يدلّ على سمة الانحلال الخلقي الذي خلّفه وجود الجواري وانتشارهنّ بين الرجال في الأندلس.

وقد ظهر عند الأندلسيين صفة الميل للجواري الشقراوات، فها هو ابن حزم يدافع عن موقفه من عشق الشقراوات بعد أن تغزّل بالجارية الشقراء نُعم وهو يبين أنّ مَن كان ذوقه عكس ما يراه فهو بعيدٌ عن الحكمة والتعقّل فقال:[1] /الطويل/

يعيبونها عندي بشقرة لونها فقلتُ لهم هذا الذي زانَها عندي
يعيبون لونَ النورِ والتّبرِ ضلة لرأيٍ جَهولٍ في الغَوايةِ مُمتدِّ
وهل عابَ لونَ النرجسِ الغَضِّ عائبٌ ولونَ النجومِ الزاهراتِ على البُعدِ
وأبعَدُ خَلْقِ اللهِ منْ كلِّ حِكمةٍ مُفضّلُ جرمٍ فاحمِ اللونِ مُسْودِّ
بهِ وُصِفتْ ألوانُ أهلِ جهنَّمٍ ولِبسةُ باكٍ مُثْكَلِ الأهْلِ مُحتدِّ

نلحظ من خلال هذه الأبيات التعصّب للشقراوات وانتقادٌ للسُّمرة وأهلها، ولعل هذا الميل سببه أنّ السود من الجواري خُصّصتْ للمطابخ بسبب الشك في إخلاصهنّ.

ولعلّه من النادر الغريب تغزّل الشعراء بالجواري السود، وهذا ما ظهر في أبيات نادرة لأمية بن عبد العزيز الداني الذي تغزّل بِجاريةٍ سوداء اسمها عزّة فقال:[2] /السريع/

يا عَزُّ عزَّ الوجدُ صَبْري بما أصبحْتِ من حُسنِكِ تُبْدينَهْ
ما أنتِ إلا لعبةٌ ما بَدَتْ للمرءِ إلا أفسدتْ دينَهْ
وقد أفدْتِ المِسكَ فخراً بأنْ أصبحَ يَحكيكِ وتَحْكينَهْ
لا شكَّ إذْ لونُكما واحدٌ أنّكما في الأصلِ من طينهْ

إنّ قلّة التغزّل بالجواري السود دليلٌ قاطعٌ على ميل الشعراء للجواري الشقر.

ولم يقف الشعراء الأندلسيون عند التغزل بجمال الجواري ولونهنَّ بل تعدّوه إلى أشياء ثانويّة كخضاب اليد مثلاً، فها هو أبو الحسن الحصري يتغزل بجاريته التي خضّبتْ يديها بخضابٍ أسودَ فزادَ يديها جمالاً فقال:[3]/الكامل/

خضّبَتْ يديها لَونَ فاحمِها فما نَقُصَ البياضُ مِلاحةً بل زادا
ما بالُ شَيبي تُنكرينَ خِضابَهُ وأراكِ خاضِبةَ البياضِ سوَادا
قالتْ نجيعُكَ[4] في يديَّ وإنّما بدّلتُهُ أسَفاً عليكِ حِدادا

يبدو من خلال الأبيات أنّه قد تعرّض لانتقادات من الجارية على لون خضاب شَعرِه، فما كان منه إلا أن قابل الانتقادَ بالتغزُّل.

[1] - رسائل ابن حزم، 1، ص133.
[2] - الخريدة، الأصفهاني، ق4، ج1، ص324- 325.
[3] - المطرب، ابن دحية، ص79.
[4] - النجيع: دم الجوف، وقيل: ما كان منه السواد، لسان العرب، ابن منظور، مادة: /نجع/ 8، ص348.

ومن الأشياء التي تغزّل بها الأندلسيون في الجواري الأقراط التي زيّنتْ بها الجواري آذانهنَّ واللباس الملوّن المُزركش بالحُليّ، فها هو ابن بسام يتغزّل بجاريةٍ نالتْ بزينتِها إعجابه فقال:[1] /الرمل/

صاغت الجوزاءُ قِرطَينِ على مِسمعَيها والثريّا دُمْلُجَا[2]

واستجادتْ من سماها حُللاً فكساها قُزحٌ ما نسجَا

لعلّ هذا التغزل يحمل في طيّاته بُعداً تأريخياً يشير من خلاله القائل إلى مدى اهتمام مالكِي الجواري في تلك الفترة بزينتهنَّ، وهذا يدلّ على الثروة التي امتلكها الأسياد الذين تفاخروا بزينة الجواري وبمظهرهنَّ.

نلحظ من خلال شعر الغزل بالجواري أنّ الغالب من الغزل كان يحمل السمة المادّية بعيداً عن عذاب الحب ولوعة الفراق، لطالما أنّ الجواري كانت مُلكَ اليمين وسهلة المنال في أغلب الأحيان، ويُستثنى من ذلك الحكم الشعراء الذين تعبوا من بُعد الجواري وصدودهنّ عن اللقاء، وفيما يتعلّق بالأبيات التي حملت سمة الروحية والشوق والحنين فهي في الظاهر حنين فيه تقليد لِمَن سبق من الشعراء القدامى، في حين أنّ العمق حملَ السمة الماديّة.

5- الوصف:

نتيجةً لمجالس اللهو والأنس التي غرق فيها الأندلسيون ظهر ما يُسمّى شعر الوصف الذي وصف فيه الأندلسيون كثيراً من مظاهر ليالي الأنس التي كانوا قد عاشوها، ولعلّ وصف الجاريات كان له نصيب الأسد في تلك الجلسات، فها هو ابن حمديس يصف ساقيةً حسناء رشيقة بدت سكِرةً في مشيتها، وقد أثرت بجمالها وسحر عينيها على كل مَن حضر الجلسة التي قُدِّمتْ فيها الخمر، وقد زاد تأثير الخمر في النفوس لأنّه حُمِل بيديها، وهذا ما عبّر عنه ابن حمديس بقوله:[3] /الرمل/

أقبلتْ تسعى بها خُمْصانَةٌ[4] عمَّ منها فحُسنُها خُلْقاً عميمِ

كلّما قامتْ تثنَّى خلعَتْ مَيَلَ التيهُ على خُوْطٍ[5] قَويمِ

سِحْرُها روتْ وما روتْ بها في فُتورِ اللحظِ واللفظِ الرخيمِ

تُودّعُ الكفَّ شِهاباً مُحرَّماً كلَّ شيطانٍ من الهمِّ رجيمِ

في ظلامٍ بَرَقَ الصبحُ لهُ فتولّى عنهُ إجفالُ الظليمِ[6]

ولم يقف الوصف عند الساقيات من الجواري، بل تعدّه إلى الراقصات، فها هو ابن حمديس يتخطّى حدود وصف الراقصة إلى وصف تفاصيل الرقص، فهو يصف راقصةً رشيقةً بيضاء في بشَرتِها وافقَت بين الرقص والنغم، وقد أرفقتْ رقصَها بحركاتٍ لتعبّر من خلالها عن الحب وأهواله، فكانت تشير إلى عينيها عند ذِكر الدمع، وإلى قلبها عند الحديث عن الحبّ وما تقاسيه[7]، لكن على ما يبدو إنّ المُعذّب الحقيقي هو الذي يصفها بتفاصيلها وهو ابن حمديس الذي قال:[8] /الطويل/

---

[1] - الذخيرة، ابن بسام، ق3، م1، ص491.
[2] - دُمْلُج: المِعضَد من الحلي، لسان العرب، ابن منظور، مادة: /دملج/، 2، ص276.
[3] - ديوان ابن حمديس، ص449.
[4] - خُمصان: الجائع الضامر البطن، لسان العرب، مادة: /خمص/7، ص29.
[5] - الخوط: الغض الناعم، لسان العرب، ابن منظور، مادة: /خوط/، 7، 297.
[6] - ظليم: الذكر من النعام، لسان العرب، ابن منظور، مادة: /ظلم/، 12، 397
[7] - ديوان ابن حمديس، ص133.
[8] - السابق نفسه، ص133.

وراقصةٍ بالسحرِ في حركاتِها تقيمُ به وزنَ الغِناءِ على حَدِّ
مُنغّمةٌ ألفاظَها بترنُّمٍ كسا معبداً من عزّهِ ذلَّةَ العبدِ
تدوسُ قلوبَ السامعينَ برَخْصةٍ[1] بها لقَّطَتْ ما لِلُّحونِ من العَدِّ
بقدٍّ يموتُ الغصْنُ من حركاتِهِ سكوناً وأينَ الغصْنُ من بَرَهِ[2] القدِّ
وتحسبُها عمّا تشيرُ بأنْمُلٍ إلى ما يلاقي كلُّ عضوٍ من الوجْدِ
بِنا لا بها ما تشتكي من جوى الهوى وأدمُعُ أشواقٍ مُخدّرةَ الخدِّ

نلحظ من خلال غرض الوصف أنّ الشعراء الأندلسيين تفنّنوا بذكر تفاصيل الموصوف من الجاريات بصورة دقيقة تنمّ عن مدى تفاعلهم مع الموصوف وصفاته، فكان وصفهم صورةً حيّةً أحيت الحدث من جديد، ووضعته على صفحة الحاضر أمام المتلقي.

6- الهجاء:

على الرغم من الأغراض الشعرية السابقة التي يظهر فيها تعلّق الشعراء بالجواري إلا أنّه كان هناك في بعض الأحيان جوارٍ سقطت عنهنّ صفة الجمال والذكاء كغيرهنّ من الجواري ما دفعَ الشعراء لهجائهنّ، ولعلّ هذا الهجاء كان فرصةً للتشفّي فعندما يهجو الشاعر جاريةً يكون ضمنيّاً قد وجّه الهجاء لسيّدها، ومن الأمور التي هجاها الشعراء في الجواري الغباء، فقد هُجيتْ قَينةٌ تُدعى نقير على لسان شاعرٍ مجهول فقال:[3]/السريع/

وقَينةٍ تُدعى بنقيرِ مُفرَغةٍ في قالبِ الزّورِ
تبدو بوجهٍ ما رآهُ امرؤٌ إلا تمنّى النفخَ في الصورِ
كأنّها والعودُ في حِجرِها حاسبةٌ تُنبي بمجذورِ[4]
لَكعاءُ من أحْسنِ حالاتِها صَفْعُ قفاها بالمساويرِ[5]
وصَيْدُها الأعْرادَ في خَلْوةٍ يُنسيكَ من صَيْدِ السنانيرِ[6]
تبّاً لها من قينةٍ عقلُها أخفُّ من ريشِ العصافيرِ

ومن الشعراء الذي لجؤوا إلى هجاء الجواري وقصدوا من هذا الهجاء النيل من الخصوم محمد بن أحمد الأنصاري الذي أراد إظهار الزبير بن يوسف بن تاشفين بمظهر الرجل الفاسد المنحل خلقياً فقال:[7]/الكامل/

عكفَ الزبيرُ على الضلالةِ جاهداً ووزيرُه المشهورُ كَلْبُ النارِ
مازالَ يأخذُ سَجْدَةً في سَجْدةٍ بين الكؤوسِ ونغمةِ الأوتارِ
فإذا اعتراهُ السهوُ سبَّحَ خلفَهُ صوتُ القِبانِ ورنّةُ المِزمارِ

[1] - رخصة: الشيء الناعم الليّن، لسان العرب، ابن منظور، مادة: /رخص/، 7، ص40.
[2] - بَرَه: الرقيقة الجلد كان الماء يجري فيها، لسان العرب، ابن منظور، مادة: /برَه/، 13، ص476.
[3] - التشبيهات ، الكتّاني، ص246.
[4] - القصير الغليظ، لسان العرب، ابن منظور، مادة: /جذر/، 4، ص123.
[5] - المساوير: المسورة: مُتكأ من أدم، لسان العرب، مادة: /سور/، 4، ص388.
[6] - السنانير، السنور: الهر، لسان العرب، مادة: /سنر/، 4، ص381.
[7] - المغرب، ابن سعيد، 2، ص128.

سعى الشاعر من خلال هذه الأبيات إلى هجاء الخصم من خلال هجاء القيان والجواري التي حولَه، فاختلاط نغمات الأوتار ورنّات المِزمار والكؤوس ما هي إلا دلالة على انحلالٍ خلقيٍّ في المجلس وصاحبه، وهذا ما جعل الهجاء خير جزاء لصاحب المجلس.

ومن الأمور التي دفعت الشعراء لهجاء الجواري القبح، ولعلّ هذه الصفة اجتمعت مع صفة قبح الصوت، وهذا ما دفع إسماعيل بن بدر لهجاء جاريةٍ صَلعاء فقدت أسنانها، وزاد القبح قبحاً عندما نطقت بصوتٍ قبيحٍ كصوت الكلاب في العراك أو صوت نقيق الضفادع فقال:[1] /الطويل/

تنفّسَ لمّا لاحظَ القومُ خبزَهُ وقطّبَ لمّا لامستْهُ الأصابعُ
فقلنا له إنّا شباعٌ فجدْ لنا بعودٍ فما في القومِ غيرُكَ جائعُ
فأسمعَنا دَرْداءَ صَلْعاءَ رجّعَتْ بصوتٍ لها تستكُّ منه المسامعُ
فو اللهِ ما أدري كلابٌ تهارشتْ بحلقومِها أم نقْنقَتْ بي ضفادعُ

إنّ وجود جارية بمثل هذا القبح والوصف ربّما مردّه إلى أنّ سيّدها اتّصف بالبخل لدرجة أنّه حرم الضيوف من الطعام، ثم حرم نفسه من اقتناء جاريةٍ حسناء بمظهرها، ففي هذه الأبيات انتقادٌ للسيد قبل الجارية.

ومن الشعراء الذين هجوا الجواري ووصلوا بهجائهم إلى حدود الشتم والسبّ الشاعر ابن عمار فقد قال:[2] /المتقارب/

تخيّرْتَها من بناتِ الهِجانِ رُميكيّةً ما تساوي عِقالا
فجاءتْ بكلّ قصيرِ العِذارِ لئيمِ النجارَينِ عمّاً وخالا
قِصارِ القُدودِ ولكنّهم أقاموا عليها قروناً طِوالا

نلحظ من خلال الأبيات أنَّ الشاعر انتقد السيد المعتمد، وشتم وصغّر قيمة الرميكية أمّ أولاده، فهجاها بنسبها الوضيع، وأساء إلى أولادها وخصالهم، ولعل ذلك مردّه إلى عداوةٍ بين الشاعر والمعتمد.

نلحظ مما سبق أنّ الهجاء كان نتيجةً لصفاتٍ تتعلّق بالجارية المهجوّة حيناً، أو انتقاماً من سيّدها حيناً آخر، فجاء الهجاء قويّاً لاذعاً عبّر عن عمق المشاعر التي حملها الشعراء في تلك المواقف.

7- الرثاء:

لا شكّ في أنّ السمة البارزة التي من الممكن أن نصف فيها علاقة الأسياد بالجواري هي السمة الماديّة التي عنوانها التمتّع بالجمال والمتعة، وإن كانت قد تطوّرت في بعض الأحيان إلى العلاقة الروحيّة فينساب الحبّ خلال تلك العلاقة، ويصبح السيّد عليها، وأمام هذه العلاقة ببعديها كان لابدّ من رثاء الجواري بعد فقدهنّ شوقاً إلى الأيام الجميلة التي كانت تُعاش معهنّ، فها هو الشاعر ابن طفيل يرثي جاريته، ويندب نفسه بعد أن افتقدها في سريره فقال:[3] /الكامل/ /الكامل/

أمسيتُ أندبُ في الفراشِ مكانَها وكأنّه ما كانَ منها عامرا
وكأنّني لم أجنِ منها روضةً وكأنّني لم أثنِ غصناً ناضرا

[1] - التشبيهات، الكتاني، ص245.
[2] - وفيات الأعيان، ابن خلكان، 4، ص428.
[3] - المغرب، ابن سعيد، 2، ص84.

وكأنّني والليلُ أرخى سِتْرَهُ لم يبدُ لي منها هلالاً زاهرا

نلحظ من خلال هذه الأبيات وقوع الشاعر في حالة من الضياع النفسي وهو يرثي جاريته، فقد شعر بحياته فارغةً دونها، حتّى إنّه شعر أنّ وجودها لم يكن أصلاً بل كان ذلك الوجود مجرّد حلمس او خيالٍ، فكان غيابها عتمةً زادت الظلامَ ظلاما.

ومن الشعراء الذين رثوا الجواري ابن حمديس الذي بكى على فراق جاريته بعد أن غرقت في البحر، وقد ذرف عليها دموعاً مُظهراً جمالها ومحاسنها وفضائلها التي اشتملت على الأخلاق وطيب النفس وصِغرها في السن فقال:[1] /البسيط/

لا صبرَ عنكِ وكيفَ الصبرُ عنكِ وقدْ طواكِ عن عيني الموجُ الذي نثرَكْ
هلّا وروضةُ ذاكَ الحسنِ ناضرةٌ لا تلحظُ العينُ فيها ذابلاً زَهَرَك
أماتَكِ البحرُ ذو التيارِ من حسدٍ لما درى الدرُّ منهُ حاسداً ثَغرك
أيُّ الثلاثةِ أبكي فَقْدَهُ بدمٍ عميمِ خُلْقُكِ أم صِغَرَك

نلحظ مما سبق أنّ غرض الرثاء ما هو إلا ردّة فعلٍ على انقطاع وصال الجواري الذي تعوّد عليه الشعراء والأسياد، وإن ظهرت في شعر الرثاء المِسحة المادية في بعض المواقف كالتشوّق لماديّات الجواري من جمالٍ ورشاقةٍ إلا أنّ السمة الروحية فرضت نفسها أيضاً، فكان الشوق بعد فقدان الجواري لروحهنّ وصفاتهنّ المعنوية التي استطعنَ من خلالها أن يمتلكن قلوب الأسياد، ويحولوهم إلى مملوكِين بعد ان كانوا مالكِين.

ثانياً) أغراض شعر الجواري:

لم يكن ظهور الجواري في الأندلس بمظهر التاثير في الشعر الأندلسي بل ظهرنَ أيضاً بمظهر المُتأثّرات، فنتيجةً للحياة الاندلسية التي طُبِعَتْ بطابع الحريّة، ونتيجةً للبيئة الأندلسية وصفاتها نظمت الجواري الأشعار، ولا بدّ من الإشارة إلى مشاركة الجواري في الشعر لم تكن طفرة أو أنّها اقتصرت على عصر من عصور الأندلس، بل كانت في مختلف العصور، وإن اتصفت تلك المشاركة بالانتكاس في بعض العصور[2].

ومن أهمّ الأغراض الشعرية التي برعت فيها الجواري:

1- المدح:

على الرغم من قلة الأبيات التي وصلتنا من غرض المدح الذي اتبعته الجواري في مدح الخصال الحميدة لأسيادهنَّ من كرمٍ وشجاعةٍ وغيرها من الصفات التي يمكن أن يُفخَر بها، إلا انّه لا بدّ من التأكيد على مدى إخلاص الجواري لأسيادهنَّ، وهذا ما ظهر في أبيات الجارية قمر التي مدحت كرم سيّدها إبراهيم بن الحجّاج جاعلةً بيته متنزل النعمة الذي لامثيل له؛ لأنّه حليف الجود فقالت:[3] /الكامل/

ما في المغاربِ من كريمٍ يُرتجَى إلا حليفُ الجودِ إبراهيمُ
إنّي حللتُ لديهِ منزلَ نعمةٍ كلُّ المنازلِ ما عداهُ ذَميمُ

[1] - ديوان ابن حمديس، ص212.
[2] - المرأة في الأدب الأندلسي، محمد صبحي أسعد، ص130- 131.
[3] - التكملة، ابن الأبار، 4، ص246.

نلحظ أنّ الجارية هنا حملت في أبياتها غرضين؛ أولهما مدحٌ لمولاها، والآخر ذمٌّ لِما سواه، فهي حصرت الرجوة في المغرب فيه وفي بيته، أمّا ما سواهما فإمّا بخيلٌ أو أنّه لا يجير.

ومن الجواري اللواتي مدحنَ صفة الكرم جارية السلطان أبي الحجاج يوسف الثالث، فقد أشادت بكرمه العظيم ومدحته عندما قدّمها هديّةً لابن فُرْكُون فقالت:[1] /الكامل/

مَولى الملوكِ بمغربٍ وبمشرقٍ عن شُكر ما أولاهُ أعْجزَ مَنطقي
أهدى إلى المملوك من منظومِهِ دُرَّاً ولكن مِثلَه لم يُنسَقِ
وافى لِيُعلمَني بأفضَلَ مِنحةٍ جادتْ بها كفُّ الكريمِ المُنفقِ

وها هي هند جارية ابن مسلمة الشاطبي تثني على مكانة الوزير أبي عامر بن يَنّق وعلو شأنه بين الأسياد، وذلك بعد أن دعاها برسالةٍ منه إلى مجلس أُنسٍ، فأسرعت بالذهاب إليه لتبرهن من خلال سرعة الاستجابة على مكانته فقالت:[2] /الكامل/

يا سيّداً حازَ العُلا عن سادةٍ شُمِّ الأنوفِ من الطّرازِ الأوّلِ
حسبي في الإسراعِ نحوَكَ أنّني كنتُ الجوابَ مع الرسولِ المُقبلِ

نلحظ من خلال أبيات المدح السابقة أنّ المدح أتى عفو الخاطر حيناً، ونتيجةً للمعاملة الحسنة التي تلقّتها الجواري من الأسياد حيناً آخر، وهذا ما جعل هذا النوع يحمل سمة التكلّف والمجاراة لمُقتضى الحال.

2- الغزل:

لا شكّ في أنّ اختلاط الجواري بالسادة والشعراء في المجالس والطرقات والسواق حرّك فيهنَّ مشاعر الحب، لكنّ كثيراً منهنَّ أعرضتْ عن البوح بحبّها، فبقي دفيناً داخلهنَّ، ومنهنّ مَنْ تجرّأنَ وبُحنَ بحبّهنَّ وكان منهنّ أُنس القلوب جارية المنصور بن أبي عامر، فقد تجرّأت بأبيات ذكرت فيها الوزير أبي المغيرة بن حزم:[3] /الخفيف/

قدِمَ الليلُ عندَ سيرِ النهارِ وبدا البدرُ مثلَ نصفِ سِوارِ
فكأنَّ النهارَ صفحةُ خدٍّ وكأنّ الظلامَ حطُّ عِذارِ
وكأنّ الكؤوسَ جامدُ ماءٍ وكانَّ المُدامَ ذائبُ نارِ
يا لقومي تعجّبوا من غزالٍ جائرٍ في محبّتي وهو جاري
ليت لو كانَ لي إليهِ سبيلٌ فأُقضّي من حبّهِ أوطاري

تمثّل هذه الأبيات من الغزل تعبيراً صريحاً عن حالة العشق التي وقعت بها أُنس القلوب برجلٍ ليس ملكاً عليها، فعبّرت في أبياتها عن الحبّ والندم والرغبة في اللقاء؛ لأنّها ربّما وجدت فيه مُخلِّصاً لها ممّا هي فيه.

[1] - ديوان ابن فركون، ص240.
[2] - تحفة القادم، ابن الأبار، ص239.
[3] - نفح الطيب، 2، ص151.

ومن الجواري مَن لم تكتفِ بالتعبير عن الحبّ ولوعة الشوق بل تجاوزته إلى البوح بالوصال، وهذا ما جسّدته الجارية عتبة بقولها: :[1] /الطويل/

أحبّتَنا إنّي بلغتُ مُؤمّلي وساعدَني دهري و واصلَني
وجاءَ يُهنّيني البشيرُ بقُربِهِ فأعطيتُهُ نفسي وزِدْتُ لهُ قلبي

ومن الجواري اللواتي تغزّلنَ عتبة جارية زِرياب التي أحسّت بإعجاب الأمير عبد الرحمن الاوسط، فتجرّأتْ وصارحته بإعجابها فقالت:[2] /المجتث/

يا مَنْ يُغطّي هواهُ مَنْ ذا يغطّي النهارا
قد كنتُ أملكُ قلبي حتّى علقْتُ فطارا
يا ويلتا أثُراهُ لي كانَ أو مُستعارا

ولعلّ هذه الجرأة في التغزّل بالرجال من قِبل الجواري ما هي إلا دليلٌ على أنّ المجتمع الأندلس أتاحَ الظروف لظهور مثل ذلك الشعر والذي انطلقت فيه المرأة من صمتها، وعبّرت عمّا في داخلها.

3- الحنين:

على الرغم من انصهار الجواري على اختلاف ألوانهنّ وأجناسهنَّ بالحياة الأندلسية إلا أنّ ذلك لم يمنع بعضهنّ من الحنين إلى المشرق لطالما أنّ للوطن ميّزاتٍ تميّزه عن غيره من الأوطان، فراحت الجواري تعبّر عن حنينها بصورة مباشرة حيناً ومُضمّنةً أشعارَها الحنين لكن دون التصريح عنه حيناً آخر، فها هي الجارية قمر ترفض نسيان بغداد والعراق فيس هناك ما يشبه بنظرها فرات بغداد ونعيمها فقالت:[3] /الكامل/

آهاً على بغدادَ وعِراقِها وظِبائها والسحرِ في أحْداقِها
ومجالِها عندَ الفراتِ بأوْجُهٍ تبدو أهِلَّتُها على أطواقِها
مُتبخترات في النعيمِ كأنّما خُلْقُ الهوى العذريِّ من أخلاقِها
نفسُ الفداءِ لها فأيُّ محاسنٍ في الدهرِ تُشرِقُ من سنا إشراقِها

نلحظ التصريح المباشر بالحنين إلى المشرق بتفاصيله، ولعلّ حنينها لم يكن حنيناً للمكان فقط بل حمل معه انتقاداً وانتقاصاً لكلّ ما سِواه، فأيّ إشراقٍ وفي أيّ مكانٍ لا بدّ أن ينطلق من إشراق وطنها.

ومن الجواري اللواتي لم يصرّحنَ بحنينهنّ إلى أوطانهنَّ بشكل مباشر جاريةٌ مشرقيةٌ لأحد وزراء المنصور بن أبي عامر، فقد عبّرت عن حنينها من خلال إشارتها إلى حالة الحيرة التي أصابتها من خلال تصوير حالة الحيرة التي رأتها في النجوم، فبدت النجوم في فُلكٍ ليس فُلكها، وهنا تضمينٌ لحيرتها وضياعها في بلدٍ ليس بلدها فقالت:[4]/البسيط/

ما بالُ أنْجُمِ هذا الليلِ حائرةً أَضلّت القصدَ أم ليستْ على فُلكِ

---

[1] - الذخيرة، ابن بسام،ق1، م1، ص431.
[2] - التكملة، ابن الأبار، 4، ص243.
[3] - السابق نفسه، 4، ص246.
[4] - تاريخ الأدب الأندلسي، إحسان عباس، ص15- 16.

عادتْ سَواريْهِ وَقفاً لا حراكَ لها كأنّها جُثَثٌ صَرعى بِمُعترَكِ

نلحظ من خلال شعر الجواري أنّ أغلب الأشعار التي قُلنها ما كانت إلا مقتطفات قصيرة ولعلّ ذلك كان سببه المكان والموقف وكان أغلب هذه الأبيات المجالس فمن بابٍ أولى أن تُختصر الأبيات.

خاتمة:

نجد من خلال البحث أنّ الجواري كان لهنّ كبير الأثر في الشعر الأندلسي، فقد أثرنَ قريحة الشعراء، فأنتجوا فناً شعرياً وبأغراضٍ مختلفةٍ تناولوا فيه الجواري، فصوروا الحنين إليهنّ، كما اشتكوا إلى الجواري من ألم الفراق، وحمّلوا أشعارهم العتب على الجواري بسبب صدّهن وتدلّلهنّ في كثيرٍ من الأحيان، وكان للغزل نصيب الأسد من أشعار الشعراء، فتغزلوا بالجواري اللواتي امتلكنَ صفاتٍ كالذكاء والدهاء والجمال، وقد برع الشعراء بوصف الجواري شكلاً ومضموناً، ولم يكن ذلك الاهتمام مانعاً لهم من الوقوف موقف الهجاء من الجواري والذي كان لاذعاً في بعض الأحيان، لكنّهم مع ذلك لم يتوانوا عن رثاء الجواري اللواتي كنّ محطّ الإعجاب، وجلساء الأُنس، ومتعة الجسد.

أمّا فيما يتعلّق بأشعار الجواري فقد تبيّن أنّ الجواري تطرقنَ لبعض الأغراض الشعرية كالمدح الذي كانت غايته في أغلب الأحيان الوصول إلى المكانة العظيمة عند السيّد، كما لاحظنا أنّه كان أحياناً مدحاً حقيقياً فرضته طبيعة المعاملة الحسنة التي كان يعامل بها السيد جاريته، كما بدت لنا أصوات الجواري في تعبيرهن عن الإعجاب بالرجال فكان الغزال حاضراً بصورته المباشرة أو الضمنيّة، ولعلّ غرض الحنين فرض تواجده في أشعارهنّ ولاسيّما عندما تحرّكت الأشواق للأوطان.

النتائج:

لقد سعى البحث إلى الوقوف عند الجواري في الشعر الأندلسي وقد تمكّن من الوصول إلى النتائج الآتية:

– أظهر مدى تأثير الجواري بالشعراء، ذلك التأثير الذي جعلهم يقصدوا أكثر الأغراض الشعرية، ويقفوا عندّ أدق التفاصيل.

– أكّد البحث على أنّ الجواري لم تكن مجرّد مؤثّرات بالشعراء بل كنّ شاعرات متأثّرات بالوسط الذي كنّ يعشن فيه ولا سيّما مجالس الأنس.

– أظهر البحث مدى الانفتاح في الحياة الأندلسية ذلك الانفتاح الذي دفع الجارية كامرأة لتتجرّأ وتعبّر عن كثيرٍ من رغباتها ومشاعرها.

المصادر والمراجع:

- تاريخ الأدب الأندلسي /عصر سيادة قرطبة/، إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط2.
- تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي، علي حسني الخربوطلي، دار المعارف، القاهرة، 1959م.
- تحفة القادم، ابن الأبار، دار الغرب بيروت، ط:1، 1986م.
- التكملة لكتاب الصلة، ابن الأبار، تحقيق: عبد السلام الهراس، دار المعرفة، د. ط.
- الجواري في الأندلس، وائل أبو صالح ، دار القم.
- الحلّة السيراء، ابن الأبار، تحقيق: حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
- خريدة القصر وجريدة العصر، الأصفهاني، تحقيق: شكري فيصل، المطبعة الهاشمية، دمشق، 1968م.

- ديوان ابن حمديس، دار صادر، بيروت، 1960م.
- ديوان ابن فركون، تقديم: محمد ابن شريفة، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، سلسلة التراث.
- ديوان المعتمد بن عباد، جمع وتحقيق: حامد عبد المجيد، أحمد بدوي، دار الكتب والوثائق القومية، ط:3، عام 2000م.
- الذخيرة، ابن بسام الشنتريني، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1997م.
- رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق: إحسان عباس، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1959م.
- كتاب التشبيهات من أشعار الأندلس، أبو عبد الله الكتاني، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت.
- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، 2010م.
- المرأة في الأدب الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين، محمد صبحي أسعد، رسالة دكتوراه، جامعة اليرموك، 2001م.
- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد الفيومي، دار المعارف، مصر، ط2.
- المطرب من أشعار أهل المغرب، ابن دحية، دار العلم للجميع، بيروت، د. ط.
- المغرب في أخبار المغرب، ابن سعيد المغربي، تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف، ط4.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري، إحسان عباس، دار صادر، بيروت.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت.